المقال الأول

محمد علي باشا

(1769- 1849م)

مقدمة

محمد علي ... ضابط من ضباط إحدى الكتائب العثمانية، التي جاءت إلى مصر؛ إلى أبو قير بالإسكندرية بقيادة حسين قبطان باشا في سنة 1801م ، وذلك لمقاومة الفرنسيين ودحرهم عن مصر. وقد كان من ضمن فرقة تتكون من الجنود الألبان، الذين تمردوا على السلطة العثمانية سنة 1803م – بعد جلاء الحملة الفرنسية على مصر – وقاوموا بتولية قائدهم والياً على البلاد. وعندما قُتل هذا القائد، تولى محمد علي نائبه القيادة مكانه.

في ذلك الوقت، كان الحاكم الفعلي لمصر البكوات المماليك، الذين حكموا الشعب المصري بالعنف والقسوة وأثقلوه بالضرائب – وكان أن ثار عليهم الشعب. وبحنكة سياسية عالية، انضم محمد علي للشعب في ثورتهم ضد المماليك، كما بدأ يتقرب إلى زعماء الشعب ومشايخهم.

في نهاية المطاف، وبعد إصرار المصريين على تولية محمد علي والياً عليهم... أصدر الباب العالي (السلطان العثماني) فرماناً في 13 مايو سنة 1805م بعزل الوالي المعين وتولية محمد علي والياً مكانه. وتعتبر هذه أول مرة منذ عدة قرون يتولى حكم مصر واحد من غير المماليك. أيضاً هذه أول مرة يمارس فيها المصريين وزعمائهم دورهم في حكم بلادهم، فقد تعلموا ذلك من خلال ممارسة زعمائهم لدورهم في الديوان الذي شكله نابليون بونابرت؛ قائد الحملة الفرنسية – بهدف مشاركة الشعب في حكم بلادهم.

لقد تميزت الحملة الفرنسية (1798- 1801م) بالطابع العلمي، ولم تكن حملة مسلحة مطلقة فقط. فقد جاء الفرنسيون بالمطابع والعلماء والفنانيين ورجال البحوث العلمية والبيئية وعلماء الاجتماع وغيرهم، وبدأوا يعلمون المصريون بعض من مبادئ حقوق الإنسان والاهتمام بالبيئة والصحة. وعليه بدأت تظهر الثمار الإيجابية لتلك الحملة في حياة محمد علي نفسه الذي اتجه للغرب واستعان بهم وأرسل البعثات للخارج، بهدف بناء مصر الحديثة. وعلى منواله، صار خلفائه لاسيما الخديوي إسماعيل الذي حاول أن يجعل من مصر دولة عصرية لا تختلف كثيراً عن الدولة الأوربية.

ومنذ ذلك التاريخ- تولية محمد علي والياً على مصر- بدأت مصر طريق الانفصال عن السلطة العثمانية. وصار الرابط الذي يربط مصر بالعثمانية، هو ارتباط إسمي فقط. وقد انتهت تلك التبعية بالباب العالي نهائياً بمجئ الإنجليز إلى مصر سنة 1882م.

محمد علي والعثمانيون

صحيح أن السلطان العثماني في القسطنطينية قد وافق على تولية محمد على أمور مصر، إلا أن هذا كان رغماً عنه بسبب إصرار زعماء الشعب على اعتباره حاكماً للبلاد. وقد كان ولاة الأمور في القسطنطينية يتحينون الفرصة للتخلص منه وإبعاده عن مصر، فصدر فرماناً سلطانياً بنقل محمد علي إلى "سلانيك"، ولكن شعب القاهرة والإسكندرية تمسكوا به. وعن طريق رشوة قبطان باشا المرسل من القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية العثمانية انتهى الأمر إلى بقاء محمد علي بمصر. وأقتنع الباشا " بأخذ رشوة قدرها 4000 كيس وهي الشطر الأكبر من ثروة المدعو جرجس الجوهري المالي القبطي وأحد الزراع الذين يؤدون الضرائب، وقد سبق أن جرده محمد علي من أملاكه" }تاريخ مصر(5) صفحة69- مكتبة مدبولي{. كما أقنع محمد علي ولاة الأمور في القسطنطينية بأنه في ظل حكمه لمصر، سوف يجنون مالاً أكثر مما كان في عهد حكم المماليك.

محمد علي والإنجليز

لم تكن مصالح الإنجليز بمصر مع محمد علي، بل كانت مع المماليك؛ أعداء محمد علي. كان الإنجليز آنذاك يساعدون زعيمي المماليك البرديسي (في الصعيد) والألفي (في الدلتا) في غزواتهما. وقد توفيا الزعيمان في ساعة واحدة "بعسر الهضم" كما قيل!! وبالطبع حسب موتهما في صالح محمد علي، وضد مصالح الإنجليز. ولم يجد الإنجليز مفراً من الاعتماد على أنفسهم لحماية مصالحهم بمصر.

في سنة 1807م، جاءت قوة إنجليزية صغيرة قوامها 4000جندي بقيادة الجنرال فريزر عن طريق الأسكندرية وأحتلت رشيد. وكان هدف هذه الحملة تأييد سلطة المماليك ونزع البلاد من يد السلطان العثماني. ولكن محمد علي قضى على نصف الجنود، كما ساق نحو 500 من الأسرى وسط عواميد خشبية علقت فوقها 500 من رؤوس القتلى الإنجليز. وبفشل هذه الحملة تخلص محمد علي من أعداءه الإنجليز، كما أرضى بموقفه هذا العثمانيين حيث قاتل أعدائهم الإنجليز. ومنذ ذلك الحين أصبح الشعب المصري يلقب محمد علي بلقب (حامي الإسلام وهازم الأجانب).

مذبحة المماليك

حارب محمد علي المماليك وشتتهم في طول البلاد وعرضها. ولكنه في سنة 1810م، خدع زعيمهم "شاهين بك" ومنحه أراضي ساشعة من الجيزة إلى بني سويف (بما في ذلك الفيوم)، فخضع له. وهذا جعل كل المماليك تقتدي بزعيمهم وتخضع لمحمد علي، وتوقع على شروط الصلح معه- وهكذا رجعوا إلى القاهرة، وسكنوا في قصورهم التي هجروها من قبل.

في مطلع القرن التاسع عشر، ظهرت الحركة الوهابية بشرق الجزيرة العربية. وحاول الوهابيون الاستقلال بالحجاز، بعيداً عن سلطة العثمانيين، فطلب الباب العالي من محمد علي إرسال حملة عسكرية لإخضاعهم. في فبراير سنة 1811م، جمع محمد علي جيشاً لهذا الغرض، بقيادة "طوسون باشا" أحد أبناءه لإخضاع الحجاز لحكم العثمانيين. وقد رتب حفلاً عظيماً بالقلعة- قبل تسيير الحملة إلى بلاد الحجاز- ودعا جميع ضباط الجيش والعظماء .... وجميع المماليك مع شاهين زعيمهم. وكان يخطط آنذاك للقضاء على المماليك أثناء الحفل.

حضر الحفل حوالي 500 مملوكاً بملابسهم الرسمية. وبالغ محمد علي في استقبالهم والحديث الطيب معهم .. وكان قد وضع خطة لقتلهم جميعاً أثناء تحركهم في الموكب الرسمي بالقلعة. في السطور القليلة التالية، ننقل بعض ماجاء بصفحتي 69، 70من كتاب محمد علي باشا، عودة الذاكرة المصرية"- مكتبة مدبولي:

"جاء المماليك في أول مارس إلى القلعة لحضور الاحتفال، وقد ركبوا خيولهم وتزينوا ولبسوا أجمل وأغلى ما لديهم من ثياب. إلتقى الوالي بالمدعويين بعد صلاة الجمعة، وتناول معهم القهوة في قاعة الاستقبال وشكرهم على حضور الحفل. ثم قرعت الطبول إيذاناً ببدء تحرك الموكب. سار المماليك في الموكب، وكانت مجموعة من الفرسان في طليعة الموكب وبعدها والي الشرطة ومحافظ المدينة، ثم وحدة من الجنود الأرناؤوط تتبعهم ثم المماليك، ومن بعدهم مجموعة أخرى من الجنود الأرناؤوط، وعلى أثرهم كبار المدعوديين من رجال الدولة.

مشى الجميع تجاه باب العرب، فنزل الجند المنحدر أولاً ثم تبعهم المماليك حتى إذا خرج آخر جندي من الباب أقفل باب العرب وراءهم، ثم أصدر "صالح أغا فوج" أوامره إلى الجند ببدء تنفيذ الخطة. أحاط الجنود المماليك وتسلقوا الصخور يميناً وشمالاً واحتلوا المواقع المشرفة على الطريق الضيق، ثم بدؤوا يهاجمون المماليك المحصورين في الطريق ويطلقون عليهم الرصاص....كان عدد المماليك الذين حضروا احتفال القلعة 470 ومعهم أتباعهم، قتلوا جميعاً ولم ينج منهم إلا واحد.... وهكذا تخلص محمد علي بالخدعة دون قتال من طبقة البكوات المماليك التي تحكمت في مقدارات الشعب المصري حوالي ستة قرون كاملة، في يوم واحد".

بعد ذلك، نزل الجنود الأرناؤوط إلى شوارع القاهرة يبحثون عن أي مملوك أو تابع له.... واستمروا يقتلون ويدمرون وينهبون ويغتصبون نساء المماليك لمدة ثلاثة أيام.... وكانت الحصيلة 1000 قتيل ونهب 500 منزل.

محمد علي والجنود الألبان

يمكننا القول إن محمد علي أبعد وتخلص تقريباً من كل السلطات الأجنبية التي لها نفوذ في مصر؛ الفرنسيين والبريطانيين والأتراك والمماليك. ولكن بقيت سلطة واحدة وهي الجنود الألبان.

كان الجنود الألبان ينظرون إلى "محمد علي" كواحد منهم، وكان الضباط منهم يشقون عصا طاعته بل يحاولون إسقاطه. أيضاً، كانوا يقفون ضد أي إصلاح للجيش يُدخله محمد علي. لذا، كان محمد علي دائماً ما يضعهم في مقدمة الجيش أثناء حروبه ليتخلص منهم.. أو يشتتهم ويوزعهم على الحاميات المختلفة الموجودة على الحدود أو في الصحراء.

وعندما هدد الوهابيون الأماكن المقدسة في الحجاز، أرسل محمد علي جنوده الألبان ليستعيدوها . وهناك وقعوا في كمين وفقدوا ثلثي قواتهم، وبهذا تخلص محمد علي من الكثير منهم. وأثناء حرب السودان، أرسل الكثيرون منهم إلى هناك حتى يتخلص منهم.

كذلك بدأ محمد علي يدرب السودانيين عسكرياً، ليكوّن منهم جيشاً نظامياً- ولكن جو مصر لم يلائمهم، فمات أغلبهم. عندئذ بدأ محمد علي يفكر في تجنيد الفلاحين المصريين الفقراء والعُمد المغضوب عليهم. وهذا جعل البقية من الجنود النظاميين المصريين يجوبون شوارع القاهرة مع ضباطهم. وعليه، قرر الجنود الألبان مغادرة مصر إلى مكان آخر يكون لهم فيه دورٍ.

المراجع:

1. تاريخ مصر(5) تأليف المستر جورج يانج- مكتبة مدبولي.
2. تاريخ مصر (6) لعمر الاسكندري وسليم حسن- مكتبة مدبولي.
3. محمد علي باشا (عودة الذاكرة المصرية) لمنير غبور وأحمد عثمان- مكتبة مدبولي.
4. محمد علي لحسين كفافي- الهيئة المصرية العامة للكتاب.
5. الأقباط (النشأة والصراع) لملاك لوقا- مطبعة أنجيلوس.
6. وطنية الكنيسة القبطية للراهب القمص أنطونيوس الأنطوني- مكتبة المحبة.
7. تاريخ الكنيسة المصرية للكاتبة الإنجليزية لويزا بوتشر- مكتبة المحبة.
8. الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي(2) إعداد فريق البحوث والدراسات الإسلامية (فدا) – مؤسسة اقرأ.